باب المراسلة والمناظرة

الشحم وضروبه

[للاب انستاس ماري الكرملي]

تلكأت كثيراً في وضع هذه المقالة ، لاسباب ، منها : إن بعض الادباء كتب إليّ يقول لي ، بعد انتشار جزء يناير من المقتطف من هذه السنة (١٩٣٨) : إن فصولك في (الدهن وأنواعه) مفيدة ، لكنها ناقصة في بعض مناحيها . وأنهى آخر انها ستورة التوضيح ، لأني لم أذكر ضروب الشحم ، بعد ان وفيت بحث الدهن حقهُ ، وألححّ عليّ آخر بأن أعود في الموضوع قُدُماً ، وأعرض أنواع الشحم ، مع تحليل ضروبها الفيزيائي ، وزادني عدد أصدقاء في أوقات متفاوتة ، يلتمسون مني ان أبين منزلة المقالة المرسومة بـ (الدهن والشحم وشمول الفصل فيهما) ، الواردة في المقتطف (٩٢ : ٢٣٨) . — فاضطررت لاشتغالي بما هو أهم من هذا الموضوع . وفي هذا الاسبوع ، هجم عليّ فريق من الحين ، وما غادروني إلاّ من بعد ان استوثقوا مني بأن ألبّي طلبهم ، بعد خروجهم من عندي ، فاضطررت الى ان أوّفق هذه السطور ، وفاءً بالوعد ، وقياماً بالواجب ، لا حبًّا للرد ، وقد سئمتهُ كل السأم

١ — الدهن

وأول كل شيء يتحتم عليّ تحقيقهُ ، معنى الدهن . فلقد أوضحنا سابقاً أن من معانيه : الزيت . لكنا قلنا ان الكلمة العربية تنظر الى اليونانية Démos . ونزيد الآن على ما تقدم : أن أول معاني هذه الكلمة هو : « دهن الحيوان والانسان » ويقابلهُ في اللاتينية Omentum او بعبارة ثانية تطيب بعضهم : شحم الانسان والحيوان . وهذا المعنى سبق بمعناهُ الآخر القريب أي الزيت بمعنى ما يستخرج من النابتة ، إذ ورد بالمعنى الاول في الالياذة في ٢٢ : ١ ٥ — و٢٣ : ٧٥٠ الى غيرهما من المواطن . والعدد الاول يشير الى رقم القصيدة بموجب ترتيبها والرقم الثاني الى رقم البيت بحسب ترتيبه . وجاء أيضاً في الاوذسة في ١٤ : ٤٢٨ الى مواطن عدة أخر . وكذلك في حسبودس الاسكريّ المترشّي بين سنة ٩٠٠ و ٨٠٠ ق.م ، في قصيدته المرسومة بثيوغونية في البيت ٨٣٨ الى غير هؤلاء الشعراء والكتبة والمؤرخين اليونانيين ، بما يضيق المقام عن إيراد شواهدهم وذلك قبل الميلاد . وأما الدهن بمعنى الزيت ، فكان في أوائل النصرانية وقبل الاسلام . فحصر العرب معنى الدهن بما باع من الشحم ، أو بما يستخرج عصراً من بعض النابتة الدهنية او الدسمة وعليه : كان العود الى الدهن بمعنى الشحم ، أحد وهو الوجه الاوجه والأشبه والاصل أحق ان يتبع لانهُ إذا جاز لنا أن نتخذ الفرع حجة لنا ، فبحجة أولى نحتج

بنا ان نتبع الاصل ، ونزيدنا إثباتاً لذلك وأخذاً به ، استعمال جميع الناطقين بالضاد في الربوع العربية اللسان ، بلا شاذٍّ ومن أقدم العهد . ولا يهمنا انكار المكابرين لهذا الشرع والتحيز

والعراقيون يستعملون (الشحم) بمعنى (السمن) أي هذه المادة البيضاء التي تُرى في المجمَّرات وتتخذ الفقراء منها الشموع الى يومنا هذا وتسمى بالانكليزية Tallow وبالفرنسية Suif ، وهي تلك المادة التي سمَّاها ابن برّي ومن شايعهُ (الودك) كما سيتضح لك ذلك فيما يأتيك من الكلام . وهذا هو معنى (الشحم) في الكتب الدينية وهو الذي يعتمد عليه أهل البادية وبعض القبائل في طعامهم من مطبوخ وغير مطبوخ . ويرى موفوراً في سنام البعير

واليوم يقول العراقيون : شمعة شحم ، او شمعة من شحم ، ولا يقولون من دهن ، لانا قلنا ان الدهن خاص بما يذوب من الشحم ، وإن كان المعنى الاصليّ هو الشحم الجامد . ولهذا تسمعهم يسألون صاحب المحلات او القطائر : هل في جُركك[1] دُهنٌ حرٌّ أم دُهنٌ ليّنٌ ؟

فيُجيب عن سؤالهم ذاكراً المادة التي اتخذها في عجن الميرتّ وهو اسم الجرك عند فصحاء العرب (راجع التاج مادة : (ر ث ث) فالدُّهن عندهم السمن وإهالة الالية . فاذا أرادوا التحقيق قالوا في الاول : « الدهن الحرّ » وفي الثاني : « دهن الية » أي الالية ، ولهم كلام آخر وهو (اللحم الدهين) كما ذكرنا ذلك سابقاً ، ويراد بذلك : اللحم الكثير الدهن اي الشحم الذائب ومن ينكر ذلك يظهر انهُ غريب عن العراقيين ولا يفهم لغتهم ، ولهذا قلت سابقاً : (٩٢ : ٦٢) : (اذ في الالية دهن وشحم ، وفي الانسان دهن وشحم ، وفي الاسماء دهن وشحم » اي أنّ في كل هذه الحاويات دهناً (يذوب عند الحاجة اليه) وشحماً (اي جامداً او دهناً جامداً)

٢ — أصل كلمة الدهن ومعناها الاول

قد قلنا سابقاً ان العربية تنظر الى اليونانية (المقتطف ٩٢ : ٦٤) ومعنى ذلك انها تتجراه ، وليس معناهُ ان اليونانية هي من العربية ولا أن العربية هي من اليونانية ، كما يتوهمهُ بعضهم . ولما لم يكن عندنا كلام مدون يرتقي عهده الى ما قبل الميلاد ، بخلاف ما عند الاغريق ، نضطر الى النظر في هذه اللغة ، في الالفاظ المشابهة لالفاظنا ، فيما ورد في مدوناتهم لمعرفة قدمها عندنا وعند اشتقاق كتبهم ، وجدنا ان أول معنى الدهن الشحم الجامد

وهكذا كان في لغتنا ، ولو كان عندنا من المدوَّنات القديمة كما ترى منها عند اليونان لوجدنا أول معنى كان للدهن : الشحم الجامد ، ثم انتقلوا الى المعنى الثاني اي الى الدهن السائل والاهالة ، او بالحالة التي يكون عليها وهو في الجسم . وقد ذكرنا في صدر هذا المقال ، ما ورد من كلام اليونان ، وفيه ذكر الدهن بمعنى الشحم ، بقي علينا ان ننظر من أين جاءتهم هذه اللفظة ؟

(١) ضرب من خبز ، هش جداً يعجن (الذي قلنا عن العراقيين انهم يسمونه الدهن اخر ، وهو كلام فصيح) او دهن الالية . اي ما يذاب منها وهو اهالة الية . والمطلوب هنا توجيه نظر القارئ الى استعمال الدهن للشحم الالية اذا أميع او أذيب . والجرك كلمة تركية وتكتب جورك أيضاً

أجمع فقهاء اللغة على ان المادة مأخوذة من (دا) بمعنى جرى وسال . راجع المعجم اليوناني الفرنسي لبوازاق ص ١٨٢ وقد ذكرنا هذا المعجم في مقالتنا السابقة . — وأنت تعلم ان العرب لا تنطق بفعل مركب من حرفين ، بل إما ان تضعف آخره ، مثل عدّ ومرّ ، فانهم يقولون فيهما عدَّ ومرَّ ، واما ان تزيد في أوله واواً او ياء ، كقولهم وعَدَ ويَسَرَ . وأصلهما من المدّ والسرور ، لان الواعد يمدّ عدد الايام التي يتم فيها كلامهُ في وعده ، ولان اليُسر يدخل السرور على النفس . فالاصل (دَا) Da يقابلهُ في لغتنا (وَدَى) بواو في الاول اي جرى وسال ، كما في معاجم اللغة . قالوا : ومنهُ اسم (الوادي) للموطن الذي يجدهُ الماء ليجري فيه

قلنا اذن ثلاثة أدلة متبعة القوى ، تؤيد ان الدهن ، هو هذا الجوهر الدسم ، الجامد في حالتهِ والسائل في أصله ومصيره . وهو كذلك في اللغات السامية واليافثية . وهذه الادلة الثلاثة هي : ١ — أصل الكلمة في وضعها الاول او في وضع لغويها — ٢ استعمالها بهذا المعنى في جميع الديار العربية اللسان ، منذ أقدم العهد الى يومنا هذا . أما سبب عدم استعمال القرآن لها فهو لان الآيات لا تتصدى لجمع ألفاظ الضاد ولا لجميع معاني الالفاظ المستعملة . وهذا واضح كالشمس في رائعة النهار . — ٣ اجماع أهل اللغات الباقية على هذا الاصل . وهم لا يتهمون بتحزب ، ولا بغرض ، ولا بمكابرة . ولهذا لا يهمنا بعد هذا زعم من يجري في صراط غير مستقيم

اذن : الشحم كالدهن والدهن كالشحم بلا فرق ، اللهم الا ان يقال ان الدهن يراد بهِ اليوم « خاصة » المائع من الشحم ، فهذا عرض لا يؤبه لهُ ، ثم اذا كان خاصًّا بالسائل منهُ في البلد الواحد فهو ليس كذلك في جميع البلاد العربية اللسان . واما ان احدهم يذكر ذلك فيقول : ان في الالية شحم [كذا بحرفهِ والصواب شحماً] وفي الالسان شحم [كذا] ، وفي الاعضاء شحم [كذا] ولا يجوز أن يقال : ان في الالية شحماً ودهناً وكذلك في اللسان والاعضاء فلكونهِ لم ينتبه الى قولنا ان الدهن الدائم من الشحم . فانك اذا أذبت بعض الالية ، وأبقيت البعض الآخر منها فقد اجتمع عندك دهن وشحم . فهل بعد هذا التصريح تصريح أوضح وأبين وهو لا يخفى على أيّ كان ؟ ولكون الدهن ورد بمعنى الذائب من الشحم او السائل منهُ جاز مجيئهُ بمعنى الزيت . ولهذا ورد هذا المعنى في اليونانية والعربية بعد ان عُرف مؤداهُ الاول كل المعرفة . ومثل هذا وقع (للدَّسَم) فان كتب اللغة لا تذكر لهُ إلاَّ معنى الوَدَك والوضر والدنس ، لكن كبار علمائهم ذكروا لنا انهُ قد يأتي بمعنى الزيت الذي يكون في بعض الانبتة . فقد قال صاحب اللسان في مادة (زعام) : « الدسم [شحم] اذا أنبتت الارض كالسمسم وغيره » اه . وهذا يبيّن ، كيف ان العرب تتوسع في معاني مفرداتها ، وتنتقل بها من معنى الى معنى ، بجامع معنى الودك ، غير ناظرة الى ان هذا الوَدَك جامد ، أم مائع ؟

٣ من مترادفات الشحم او الدهن : الزهم او الزهمة

للشحم او للدهن الجامد . (وقد كان الشحم سائلاً في البدن قبل ان يجمد) عدة مترادفات لا يُسرى مثل عددها في سائر اللغات ، من شرقية وغربية ، من سامية وحامية وبائنة ، ونحن لا نتمكن من اثبات جميعها هنا ، اذ تتبع استقاؤها مع شروحها ، وذكر امثولها في نحو جزء من اجزاء هذه المجلة ، لكننا نجتزىء بذكر بعض منها ، من باب التمثيل ليس إلاّ . من ذلك الزُهم

قال ابن مكرم في ديوانه في مادة (ز ه م) ما هذا نقله « الزهمة ، بالضمّ : الشحم . قال ابو النجم يصف كلباً :

يذكر زُهم الكفل المشروحا

قال ابن بري : اي يتذكر شحم الكفل عند تشريحه . قال : ولم يصف كلباً ، كما ذكر الجوهري ، وانما وصف صائداً من بني تميم لقي وحشاً . وقبله :

لاقت تميماً عاماً لوحا صاحب اقناص بها مشبوحا

ومن هذا يقال للسمين : « زهم » . وخص بعضهم به شحم السنام ، والحبل . والزُهم والزَهَم : شحم الوحش ، من غير ان يكون فيه زهومة ، ولكنهُ اسم لهُ خاص . وقيل : « الزهم » لما لا يجترّ من الوحش ، و« الودك » لما اجترّ ، و« الدسم » لما انبتت الارض كالسمسم وغيره . اه كلام ابن منظور . فانت ترى من هذا ان ابن بريّ قسم « الشحم » ثلاثة اقسام شحم المجترات وسماه « الودك » وشحم غير المجترات من الحيوان وسماه « الزهم » ، وشحم النبات وسماه « الدسم »

فهل لاحظت انهُ اطلق على هذه الموادّ الثلاث اسماء الشحوم . ثم خص كل ضرب منها باسم يختلف عن اسم اخيه . وهل لاحظت ايضاً انهُ سمّى دهن الالية أوزنها « شحماً » لا زيتاً ولا دهناً ، وقد ذكر ابن مكرم نفسهُ في مادة شحم ان « العرب تسمّي سنام البعير شحماً » وياض البطن شحماً » ولم يذكر للنبات شحماً لكنهُ توسع في تلك المادة فقال : (شحمة الاذن ، وشحمة العين ، وشحمة الارض ، وشحمة النار ، وشحمة النخلة ، وشحمة الرمانة ، وشحمة الحنظل ، كل ذلك من باب المشابهة والتوسع في الوضع ، فهم لا يقيدون انفسهم بقيد يخلاف ما يتصور بعضهم ممن لا وقوف لهم على اسرار اللغة العدنانية وخصائصها ومزاياها ، ولا يجوز لاحد ان يضرب عليهم نطاقاً من عنده . او يبني على حدوثها سداً مثل سدّ يأجوج ومأجوج ويقول لها : (قفي في هذا الحد ولا تتجاوزيه)

فقد رأيت (الشحم) في النبات كما رأيتهُ في الحيوان . وكذلك يقال عن الدهن والدسم الى غيرها مما نقل عنهم وعن لغويهم الاثبات . فلغة العرب واسعة سعة رمال جزيرتها

٤ الشحم دهن ويكس

قال في محيط المحيط « اللحم واللحم من جسم الحيوان : خلاف العظم ، او هو من الضئين

والبقر ونحوها : المادة الحمراء الرخوة التي تؤكل ، فلا يتناول المادة البيضاء من الشحم و«الدهن» ج لحام ولحوم ولحمان ولحمان وألحم » . فهذا نص صريح على ان الدهن غير الزيت الذي يخرج من الشجر او الحجر بل هو شيء يكون في البقر والبشر

على اني — والحق يقال — لا اعتمد هذا المعجم . وقد صرحت بذلك مراراً لا تحصى . وانما ذكرته لمن يجعل صاحبه وكل من نقل عنه في مناط السوق . واما انا فلا اثق به لكثرة سقطه واقتباسه من فريتغ . وهذا رجل المالي قليل الاطلاع على صحيح كلام العرب وصميمه . فكيف جاز للبستاني ان يأخذ صلب كلام سيبويه منه ؟ — فاذا كان فريتغ كثير الغلط والسقط فالحرا ان يكون ذا لك ايضاً على هذا الطراز وكذلك يقال على اقرب الموارد والبستان والمنجد وافرائد الدرية

اما ان هذه المعاجم جمة الاغلاط فنحن لا نتعرض لها هنا ، اذ قد وضعنا لها سفراً ضخماً للاشارة الى التصريح بكثير منها ، وانما نتعرض هنا لما ورد في هذه العبارة التي ذكرناها قبيل هذا . فان المؤلف سرد في جمع اللحم : اللِحْمان بالكسر وهذا الجمع لم يذكره احد سوى فريتغ . أما الذي ذكروه فاللُحمان بالضم ، لكن البستاني لا يهه هذا الامر ولا يتحرى صحة ما ينقله عن فريتغ ، فلكون هذا الرجل ذكر الكسر في معجمه ، كان الكسر هو الصحيح وما عداه هو القبيح او يكاد . ألا تراه قدم اللحمان بالكسر على اللحمان بالضم ؟ — فهذا شأنه في كل ما اقتبسه عن الاستاذ فريتغ[1] . على اننا نعتمد البستاني في كل ما اتفق فيه والمؤلفين . وهو في قوله الدهن من الشحم يضم الى المعنى الشائع الذائع بين متكلمي العربية وبين المؤلفين . وقد بينا صدق استعمال الائمة للدهن بالمعنى المعروف في الفقرة الثالثة من هذه الكلمة والآن نؤيده بنص واضح يكون به فصل الخطاب

قال في اللسان في (ودك) : «وفي حديث الاضاحي : ويحملون منها الودك » هو دسم اللحم «ودهنه» الذي يستخرج منه [لاحظ جيدا واجم النظر والفكر في كلمة : « ودهنه » اي دهن اللحم لا دهن الزيتون] . وودكته توديكاً . وذلك اذا جعلته في شيء هو والشحم أو حيلاته السمن . وشيء وديك ووَديك . والذكة : اسم من الودك . . . ودجاجة وديكة أي سمينة . وديكٌ وديك ، ودجاجة وديك وودوك : ذات ودك . ورجل واديك : سمين ذو ودك . والوديكة : دقيق يُساط بشحم شبه الخزيرة » اه . الى آخر ما هناك من الكلام الدال على ان الشحم والودك والسمن والدهن ألفاظ مختلفة لحالات من الشحم . ومن ينكرها ، عليه ان ينكر الشمس في رائعة النهار ، فذا الامر أهون . والسلام على من اتبع الهدى

(١) المقتطف — وقد ساق الاب انستاس في حاشية طويلة غلطات اكثر من صفحة لبعض ما يراه دليلا على ان «البستاني كان مشغوفاً بفريتغ في اول تأليفه لمعجمه محيط المحيط ولما أودك ان يصحح القاموس تأليفه تبين له كثرة ما يورد فيه من الخطإ فندم على عمله هذا . . .» فانصرفنا على الاشارة الى ذلك.